

"لحقت به، فكان مصيري.. خلف القضبان"

كبرياء الفقير

هاجر بري

" أعتز كوني فقيرا.. فقد صنع منا رجالا "

ويليام البانس

~ الحكاية ~

بعد أن صدر قرار اخلاء بعض الأماكن لأجل سلامة المواطن، لجأ معظمنا
لحلب وطرطوس بدعوى المناطق أماناً في سوريا من غزة، لكن أن تموت
خير من أن ترى الجرذ يحتل أرضك، لذا فلا خيار أماناً إلا العودة!
عدنا حيث نمسي ونصبح على هدير الطائرات وهي تلقي بصواريخها فوق
رؤوسنا، لا تخطئ أخضرا ولا يابسا، بينما نرد بأخرى أكثر فتكا صارخة بأن النصر
بإذن الله.

وفيما أنا أربت على جبين حسناء الصغير، وضعت أناملها الرقيقة على يدي في
حمى شديدة وهمست بهون: احك لي قصة كعادتك أُمي.

قلت دون تفكير: بما أن أخويك يلعبان خارجا فلتكن عن كبرياء وبؤس ذاك الفقير.
وأخذت أحكي دون مقدمات.

ناديته بإشفاق لا أدري عنه شيئا: أيها الفتى!
توقف.. نظر بطرف عينه الذابلة، ولم يلتفت، فسألته: أترغب بإيصالك؟

- شكرا

- طعاما؟

- تتمم بكبرياء: الموت أهون.

- مالا؟

- ...

- أنت أحرص؟

هز كتفيه دون اكتراث وأكمل سيره.

صرخت فيه بحنق: أنت حتى لا ترتدي شيئاً يقيك من المطر! وتتبهنس في مشيك

يا جعسوس؟

ندمت على قولي حين التفت ورد بأسى تشوبه بعض السخرية: سيدة غنية مثلك ترى

الحياة بالبصر لا بالبصيرة يجب أن تهتم بانتقاء كل غال جديد، بدل حشر أنفها فيما

لا يعنيها.

وتركني أراقبه يجوس في الديجور.

~ لقد انتابني الفضول~

البرد قارس والليل دامس ظلامه، المطر ينهمر بغزارة، كسر الهدوء المخيم سيارة

من طراز قديم، وأصوات صراصير الليل ومواء القطط الجائعة. لمحت ذاك الهزيل

يجر قدميه بانهاك أشفت لحاله، لكن حين كلمته تجاهلني بكبرياء أعاظني..

تمكن الفضول مني، ركنت سيارتي جانبا ولحقت به، كان لغوبا مني فقد توقف

صارخا في وجهي: كفي عن اللحاق بي امرأة!

أجفلت حين رأيت وجهه المليء بالندوب، كان في الرابعة عشر من عمره،

مسحت على خده بحزن قانلة: لم تص..

صمت، فقد رأيت الدموع تتجمع في مقلتيه، كاد ينهار فرمل حتى أفل.

بقيت في مكاني حتى سمعت صوتاً أجشاً خلفي: لن يقبل أي مساعدة، يقول إن مبداه العمل لا قبول الصدقات والتسول، مات والده في الحرب، والدته مصابة بشلل كلي، وأضاف بفخر.. ويعمل عندي.

غمغمت: فتى صنديد! أين يسكن؟

-هو كذلك، أحياناً أشفق عليه، فيصرخ لاعتناً الفقر والأغنياء، مسؤول عن طفلين آخرين وقد أجشم بالأمر كله، ثم أرشدني لبيته ورحمني من ثرثرته. عدت لبيتي وكل همي على هذا الصغير، أتقلب في فراشي، لكن النوم سلطان!

في الصباح قررت زيارتهم، استحسننت الذهاب مشياً فالجو جميل ذاك اليوم، مرر على بعض الدكاكين، اشتريت بعض الأشياء البسيطة.. وصلت بعد ربع ساعة.. وفي ركن انزوى بيت أجم، طرقته بخفوت، فتح لي طفل أشقر شاحب، قال: انتظري يا خاله. عاد للداخل، سمعته يسأل أيسمح لي بالدخول؟ كان الرد نعم فقد عاد يرحب بي.

~ ماتت العجوز ~

خطوت ببطء وتردد، سرت بجسدي رعشة خفيفة، تسللت رائحة عفنة لأنفي، أرضية متسخة قدرة جدران بهت لونها، وأثاث بالكاد يدفئ العجوز العليلة فوق السرير المهترئ، دنوت منها، فأمسكت بتلابيبي مبتسمة بشرود، افزعنتي، لكني مسحت على رأسها البيضاء شعيراته القليلة، فهمست بصعوبة: أرجوك يا ابنتي لا تعودي هنا مجدداً، سيثور ذاك الصبي.. أمسكت كلامها فقلت: كبريائي!

- كوالده تماما

تحدثنا طويلا وحكت لي عن طفولته وأخويه.

تركت ما اشتريت قرب رأسها وهممت بالخروج، أخذت تسعل فجأة بقوة وتبصق
دماً! هرعت أحضر ماءً نقاخا فسمعت صرخة الطفلين التوأمين، أسقطت الكأس،
جثوت على ركبتي أمام الجدة.. وعندها دخل ويليام!

آخر ما أذكره بكاء الطفلين وصراخ الولد بي " قاتله، قاتله "

~ خلف القضبان~

بدل أن أستيقظ في بيتي كنت في المستشفى، من ثم أخذوني للسجن.. ثلاثة أيام
خضعت فيها لإستجواب عنيف، أجيب بلا ونعم، علمت أن العجوز ماتت بين يدي
فكنت المتهم الأول، أدلة أدانتي ولا أخرى تفرج عني

بقيت ستة أشهر خلف القضبان، اعتدت رائحة العفن وصراخ المسجونين

وعراكاتهم.. وفي يوم الجمعة " عيد المؤمنين "

جلست في حضرة القاضي الذي دق بمطرقة في الأخير قائلا: رفعت الجلسة وأفرج
عن المتهمة إليزابيت دونتمري.. قاطعته مبتسمة: سميت زهراء بعد إسلامي جزاك
الله خيرا.

أسترسل رادا ابتسامتي: بتصريح من ابن القتيلة، السيد ويليام بعد أن ترك رسالة

شبه ممزقة وجدناها في ركن بالقبو تثبت براءتك.

منحني الرسالة وسمح لي بالخروج.

~ فحوى الرسالة ~

فتحت الرسالة لأقرأها، كانت مكتوبة بخط مرتعش:

لا داعي للتقريب في وفاتي، لكني أعتذر وبشدة من السيدة المتهممة بقتل
والدتي، الشاهدان الصغيران على وفاتها يعلمان الحقيقة.
والدتي مصابة بالشلل والدم الذي تقيأته بسبب حصى الكلى الذي تمكن منها
وسلبها صحتها..
لم يكن فقري السبب بل رب عملي الوحش الذي حول حياتي لجحيم، كرهت
الحياة وأنا أجز معي الرذيلة.

لا أريد شفقة أحد فأنا أستحق ما دمت تحديت هذا العالم الأسود بكل كبريائي، النصر
لغزة والمسلمين.

- عبد الله بعد الشهادة -

حسب التشريحات الطبية وأحاديث تداولتها الألسن، ثبت أن طبيعة عمله كانت
استجارا لجسده الهزيل مقابل بعض الشيكلات (العملة الإسرائيلية المتداولة في
غزة)، كما أنه لم ينتحر بل اعترف صاحب عمله أنه قرر الوشاية به، وحين ذهب
إليه وجده قد انتحر بالفعل، بينما الورقة تثبت عكس ذلك فرمي الصبي لها بتلك
الطريقة ربما لإخفائها، المهم زج بهذا الأخير لسجن مؤبد رغم استحقاقه الإعدام..

~ ملائكة في الميتم ~

دون وعي ذهبت لمنزلهم راکضة، كان خاليا، وحين سألت قيل لي أنه لم يتبق سوى الطفلين تحت رعاية الميتم، فرحت إليهما أحضنهما باكية.
قال لي الطفل جون بنظرة حزينة ودمعة سيالة: لقد عبر عن الحقيقة بطريقة شنيعة..

قاطعته نحيبه الممزق، فاسترسلت أخته التوأم: يوم الاربعاء بات ليلته في القبو، ذهبت لأوقظه صباحا.. رأيت قدميه الباردتين معلقتين في الهواء، أخي وقد التف حبل حول عنقه وجهه مزرق وعيناه جاحظتان جحوظ الأموات، فارق الحياة دون سابق انذار تاركا ذكريات خففت من شقاء حياتنا.
ثم تلك الورقة التي أفرجت عنك لتنعمي بحياة هنيئة كغيرك من الاثرياء.

أحسست حينها أي السبب في وفاته وكان السبب في سجنني، لكنه القدر!

بعدها أخذت الطفلين معي تكفلت برعايتهما رغم محاولات العديد بانتزاعهما مني لأغراض شريرة..

هزت ابنتي ذات العشرة أعوام حاجبيها الهاليين مستنتجة: إذا صدق "عمر بن الخطاب" حين قال «لو كان الفقر رجلا لقتلته» قالها وهو يعلم أن الفقر قد يكون سبب تعاسة البعض!

ربتّ على ظهرها وقلت متتهدة: عندما تكبرين ستفهمين الفرق بين الفقر المادي والعقلي، أيا يكن غنى الآخرة ليس كغنى الدنيا {والله يرزق من يشاء بغير حساب} ثم إن الله وهبني هذان الطفلان للتدبر وعدم التبذير في رزقه والإحساس بالفقراء.

كنت لأحكي لها قصة وفاة والدهما جورج في الحرب لكن الكلمات علقت بحلقي وتلاشت بعودتهما من حديقة بيتي المخضرة، ابتسامة تعلو وجهيهما الصغيرين، ووميض الكبرياء يلمع بعينيهما العسليتين مذكرا إياي بعبد الله المرحوم.

غيرت مجرى الحديث بأن اقترحت عليهما أسماء بعد نية إسلامهما، ليلي وعمر لكل من التوأمين..

وفجأة دوى صوت انفجار قوي، تلاه سقوط السقف فوق رؤوسنا.. حضنت الأطفال وأغمضت عيناى، متممة بالشهادة «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد عبده ورسوله».

_ تمت بحمد الله العظيم _

لن ألومك أيها الفتى..
فإثبات الذات بالجهد والعمل،
أفضل بكثير من قبول
الصدقات بفعل الرثاء والشفقة..

لم تكن تستحق كل ذاك
البؤس ، لكن الأقدار تأتي

فتمتحن الإنسان بقدرة الله عز
وجل..

فلا فرق بين غني ولا فقير...
بل ، من منا الصالح ومن منا
الطالح ؟

أسأل الله لك ولنا المغفرة ،
والأجر والثواب..

—إليزابيت دونتمري—



